

ومن المسلم به أن المباحث البلاغية المشار إليها لم تنشأ من فراغ في أى لغة من اللغات ، وإنما تبلورت بعد تأمل طويل ، وفحص عميق لأساليب التعبير في الأعمال الأدبية المختلفة ، ومن ثم نراها تتخذ ابتداء طابع الوصف لظواهر التعبير القولى في نص معين ، ثم ما تلبث أن تتجرد من هذا الطابع لتتحول إلى ما يشبه الأصول الثابتة ، والمعايير المستقرة التى ينبغى للمتكلم أن يتوخاها ويحرص عليها ، كما يحقق لكلامه الأثر المنشود . هكذا كانت بلاغة اليونان فيما انتهت إلينا فى القسم الثالث من كتاب « الخطابة » لأرسطو ، وهكذا كانت بلاغة العرب فيما حفظته لنا المؤلفات البلاغية .

وبهذه المناسبة نشير إلى شئ من الفرق بين البلاغتين اليونانية والعربية ، فى طبيعة النشأة لكل منهما ؛ فبلاغة اليونان - كما هى فى كتاب أرسطو السابق - تدين فى الجزء الأكبر من صورها وظواهرها للفن الخطابى بأشكاله المتعارف عليها فى المجتمع اليونانى آنذاك ، وقلما تستمد من الشعر ؛ إذ كان الشعر بمفهومه القائم على المحاكاة نشاطا مسرحيا تمثليا أكثر منه نشاطا قوليا ؛ ومن ثم لم يكن مصدرا أساسيا لاستمداد الظواهر الأسلوبية منه ، ولعل هذا هو ما يفسر مسلك أرسطو من إلحاقه الجزء الخاص بالأسلوب أو العبارة الذى يشتمل على معظم الظواهر البلاغية بالخطابة دون الشعر . أما بلاغة العرب فإنها استقت صورها من الشعر والنثر على سواء ، وإن كان اعتمادها على الخطابة فى القليل النادر من الأحيان .

ومن المصادر المتميزة فى نشأة البلاغة العربية مصدر عظيم الخطر ، لم يتهياً مثله لبلاغة اليونان ، وكان له دوره الفعال فى تشكيل مسار البحث البلاغى ، وهو القرآن الكريم ، فقد جاء بلغة العرب ، وتألف من جنس الحروف والكلمات التى تألف منها شعر الشعر ، ونثر الخطباء ، لكنه/فأقهما ببراعة نظمه وإحكام تراكيبه ، وظهر ذلك فى عجز أفصح/فصحائهم عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه ، بل كانت نماذج المحاكاة القليلة التى حاولها بعضهم مدعاة للسخرية ، وأوضح دلالة على العجز . وقد كان العرب المسلمون الذين أدرکوا فجر الدعوة الإسلامية ، وعاشوا فى عصرها الأول يدركون بفطرتهم اللغوية الصافية عناصر هذا الإعجاز البيانى ومقوماته ، دون حاجة إلى تعيينها بأسمائها الاصطلاحية ، بل دون أن يستشعروا هذه الحاجة قط . كذلك كانت نصوص